

طموح البعث

المعرفة لا تكون صحيحة الا اذا امتحنت بالعمل ، فالعمل يغنيها ويصححها . ان نضال الامة العربية نضال طويل لم يبتدىء مع حركة البعث ولن ينتهي معها . وكل ما في الامر ان هذه الحركة خرجت من حاجات امتنا في مرحلة معينة لتستفيد من التجارب السابقة ، ولترفع مستوى النضال إلى الحد الذي يتكافأ مع عظم قضيتنا وعظم أهدافها ومع عظم الاخطار المحدقة بها ، ومع روح هذا العصر ، فكانت محاولة صادقة نرى اليوم انها أثمرت بعض الثمار .

ان طموحنا كبير ، طموحنا هو طموح الانسان وطموح كل شعب اصيل شاعر بشخصيته مقدر لمعنى وجوده الانساني ، طموحنا لا يقتصر على دفع الاخطار والتخلص من الاعداء ومن ظلمهم الذي لحق بنا زمنا طويلا . طموحنا لا يقف عند حدود السلبية والرفض والتخلص وانما هو في أعماقه طموح ايجابي بناء في أن نعمل وان نسترجع من جديد تجاوزنا الصادق مع الحياة ، وان نساهم في بناء الحضارة ونساهم في اخصاب القيم الانسانية وفي الدفاع عنها وفي تجسيدها تجسيدا صادقا في حياتنا وسلوكنا .

عندما طلع علينا الاستعمار مؤخرا بنظرية الفراغ ، قائلا ان بلادنا فيها فراغ يستدعي ان يملأ بالاستعمار والاحتلال ، خطرت لي - بالمقارنة - ان الفراغ قائم فعلا ولكن ليس في شعبنا وبلادنا ، وانما في هذا القسم من العالم الذي مسخ القيم وزيفها ووصل في النفاق الى حد التناقض مع ما يدعيه من مبادئ . ويخطرت لي دوما ان ثمة في العالم فراغا مخيفا ، ولا يستبعد أن تكون امتنا من بين الامم التي ستطالب بأن تملأ هذا الفراغ في وقت أقصر مما نظن . ان حضارة المستعمرين تنذر بالانهيار والفشل طالما انها تتجنى على الشعوب الضعيفة مثل هذا التجني ، وتغالط وتكاد لا تعرف أنها تغالط ، اي ان الزيف امتزج في نفوسها وأذهانها إلى حد انه أصبح طبيعيا فيها ومن صميم مفاهيمها . من يعيد الى هذه القيم التي أفرغت من معناها ومحتواها في الغرب . . من يعيد اليها الحياة والدم الا الشعوب التي عانت الظلم ، وعانت

تجربة الألم الى الأعماق؟ فكأن القدر يهيئها لان تحتل مكانها قريبا وان تكافأ على الامها بأن تظهر هذه المبادئ والقيم الخالدة التي لا غنى للانسان عنها، والتي لا تستقيم بدونها الحياة. لعل القدر يهيء شعوب افريقيا واسيا وكل الذين عانوا الظلم الخارجي والداخلي، ان يخرجوا من هذه التجربة بثمره يانعة لا تقتصر فائدتها عليهم فحسب، وانما تشع على الانسانية كلها. لذلك قلت ان طموحنا لا يقف عند حد اخراج المستعمرين من أرضنا، وايقاف المستغلين في الداخل عند حدودهم ولا يتوقف عند حد تأمين الحرية والرخاء للشعب، وانما هي كلها وسائل لكي تنطلق عبقرية هذه الامة نحو الابداع، نحو المساهمة الجدية في حمل الاعباء الانسانية. وهذا في الواقع ما كان ينفردنا من الحركات الوطنية السابقة. وهذا ما شعرنا بأن ثمة واجبا علينا وان ثمة مهمة جديدة لنا، فأنتم تعرفون في أي مستوى كانت تحيا وتعمل الحركات في مختلف اقطارنا العربية، في أي مستوى مقلد سطحي سلبي. يأخذون على الاستعمار أشياء كانوا هم أنفسهم يرتكبونها يوميا، ينادون بالحرية لا ايمانا منهم بالحرية ولكن دفعا لتهمة الغرب الموجهة الينا باننا لا نقدر معنى الحرية، ينادون بالمساواة والرفقي وغير ذلك لا عن قناعة، ولا عن معاناة وتجربة عميقة لهذه الأشياء، وانما في المظهر والاعلان لدفع التهمة. اذن لم تكن تلك الحركات اصيلة، لم تكن تنبع من الشعب، ولم تكن تعبر عن حقيقته وامكانياته لأنها لم تكن تعتمد عليه ولا تثق به.

ولعلكم سمعتم أكثر من مرة أولئك الزعماء والسياسيين في أحاديثهم الخاصة: «الشعب لا يفهم، لا يعي، لا يقدر»، وفي خطبهم يشيدون به ويمتدحون فضائله ويستغلون غروره.

الثقة الحقيقية بالشعب هي أعمق من تلك، تبدأ بالصدق، أي ان يكون المناضلون صادقين في عملهم وواقين من أنفسهم، وبعد ذلك لا بد أن يكسبوا ثقة الشعب لأن امكانيات شعبنا غزيرة وعميقة، ولكن أكثرها دفين ومغمور.

كنا اذن نشعر بأن مرحلة جديدة يجب ان تبدأ، وأن تظهر فيها الامة العربية على مستوى جديد غير المستوى السلبي الذي كانت عليه في الماضي، غير مستوى

التشكي والتظلم والمواربة والتستر بعناوين المبادئ لكي ترفع عنها التهم الموجهة اليها من الاعداء . مرحلة جديدة تقف فيها أمتنا لتواجه مصيرها وجها لوجه . . . تواجه حقيقتها بصراحة وجرأة ، ولا تعباً باستعمار ولا أجنبي . الأصل انها موجودة ، ولكن تريد ان يكون وجودها صادقا وعميقا ، ولا تتلأأ عن رؤية أخطائها ونواقصها لان هذا أول دليل على نضجها وبلوغها سن الرشد . والواقع ان المرحلة الجديدة التي بدأناها لم تغفل قيمة الشعب في خوض المعركة ضد الاستعمار ، فقد وجهنا أنظار الشعب إلى نفسه وإلى أمراضه . وهذا تشجيع للشعب وثقة فيه لم تكن الحركات السابقة تجرؤ عليها ، بل كانت تداريه وتداويه . لذلك لم يكن يثق بها ولم يكن يمشي وراءها إلى آخر الطريق .

أما مرحلتنا فكانت تنظر إلى الاستعمار بأنه نتيجة أكثر منه سببا ، نتيجة لما يشوب مجتمعنا من نقص ومن تشويه . وأعتقد بأن هذا ما يجب ان نلح عليه وأن نزداد جرأة في الماضي فيه ، وأن نعتبر أننا دخلنا النطاق العالمي ، ونقوم بدورنا الذي تجاوز حدود وطننا وحدود قوميتنا ، وانه يجب ان نواجه هذا المستقبل الايجابي بثقة وتفاؤل واقدام . قد يسدولكم كل ذلك الان شيئا طبيعيا وسهلا يسيرا ، ولكن عندما بدأنا حركتنا قبل خمسة عشر عاما كانت هذه اللغة صعبة الفهم وصعبة التقبل ، لان الجور الذي خلقته الحركات السابقة التي قامت على الهواة والمحترفين ، وعلى المترفين الذين كانوا يتسلون بالسياسة لا على المناضلين الصادقين ، كان جوا مزيفا حجب عن الشعب حقيقة قضيته ، فلم يكونوا يريدون أن يسمعوا ان قضيتنا مرتبطة بقضية الانسانية كلها . ولم يكونوا يتقبلون ان تكون مرحلة نضالنا ضد الاستعمار مرتبطة بالنضال الاشتراكي في الداخل ، ولم يكونوا يفهمون ويستسيغون أن قضيتنا في كل الاقطار العربية هي قضية واحدة ، ويجب توحيد النضال ، وأن تنسجم خطوطه ، وأن التجزئة التي فرضت على بلادنا هي مصطنعة وعارضة ، وأن في أعماق الشعب ما هو كفيلا بأن يجلو الصدا ويزيل الزيف ويظهر حقيقة أمتنا وأنها أمة واحدة . وها نحن بدأنا نشاهد الصدا يجلى والحقيقة يبرز وجهها ناصعا ، عندما اتخذت مصر طريقها السوي إلى العروبة بعد أن كانت مضللة مدة طويلة ، وكادت تفقد بذلك حركة

النضال العربي أكبر وزن وأكبر ثقل . هذا الذي يراه الكثيرون وكان يراه الساسة القدماء كمعجزة ليس لها تفسير، كنا نؤمن بأنه آت لا ريب فيه، وان حقيقة مصر العربية ستظهر في يوم من الايام .

تسمعون أيضا اصواتا ناشزة تقول : ان ما حصل الان من ائتلاف وتقارب بين أجزاء الأمة العربية هوشية حسن ولكنه ليس شيئا أصيلا، وليس شيئا محتما وأن ظروفًا معينة اقتضته، هي ظروف الكفاح ضد الاستعمار، وانه لا يغير شيئا في حقيقة الاقطار، الاقطار التي تؤلف وطننا الواسع، فلكل قطر تاريخه وماضيه وشخصيته وظروفه، وان القومية العربية شعار لمرحلة!

هذه آراء مستوردة لا تتبع من صميم القضية وفيها تناقض، اذ ان هذه السرعة التي تم فيها الانسجام وانجلاء الوعي العربي بين أقطارنا تدل على أن ثمة حقيقة كانت كامنة ولم تتطلب جهدا كبيرا حتى تظهر وتكشف عن نفسها، في حين أنه لو لم تكن هذه الحقيقة قائمة موجودة، لو لم تكن مقومات الأمة موجودة في شعبنا العربي كله، لاستحال ان يظهر هذا الانسجام بين أقطار كانت متباعدة في أكثر الاشياء، وأنه كان يكفي ان تزال طبقة من السياسيين المحترفين حتى تعلن هذه الحقيقة عن نفسها وتفرض نفسها فرضا . وهذا التجاوب ما كان يتم لو لم يكن مستندا الى واقع حي .

آذار ١٩٥٧